الثورة
www.althawranews.net
الخميس : 4 شـوال 1435هـ - 31 يوليـو 2014م -العدد 18151
Thursday : 4 Shawal 1435 - 31 July 2014 -Issue No.18151

الإبداع والوحدة هما الأرض والإنسان

صلاح الأصبحي

سـيظل الإبداع يحظى بديمومتـه الوافرة فـي زحـم الحيـاة وتفاصيلهـا المختلفة الجوانـب والمتعـددة الأشـكال, كمعنـى لهـا وأيقونـة تثبـت أبديتهـا وارتباطاتهـا بكينونات تقابلها في الوجود وتوازيها في الصيرورة الجامعة لهما .

فاتصـال الإبـداع وهدفـه ومنبعه وسـيرة تواجـده يحكمهـا توحده بكيان الإنسـان وحاجتـه أو ضرورته أو متعتـه أو ملازمته لـه كوجود يكمـل وجوده , بمـا هو ارتباط توحـد ووجـود أكثر مـن أي شـيء آخر , يظنـه أي متابع أو خبيـر لحيثية الإبداع والإنسـان , فلحظة مثول الإبداع ومفاجأة خلق الإنسـان له يبرر التماهـي والتمازج بينهما , فلم ينتج الإنسـان الإبداع بتباين مـن هنـا أو مـن هنـاك بفوارق ومشـاغل تهم فرداً ولا تهم آخـراً ,وخاصة في بواكره الأولى , كالحياة والموت , الحرب والسلم , النعيم والشـقاء , الجمـال والقبح , الزمان والمكان , القيمة والمتعة , الرغبة والحاجة , وإنمـا إنسـان واحد تتسـاوى مشـاعره وتتحد عواطفه تجاه كل هذا , لكنه خاضع للتطور والتقدم خاضع لمؤثرات كل زمن مـن إضافـة وتكوين, ومـن تراكـم وتطوير وتوسـع لدوائر الحياة وزيـادة في الوعي واتساع في البواعث والمشاغل الإنسانية والفنية .

منـذ بزوغ فجر الإبداع, الذي ظللنا نبحث عـن ذلـك البـزوغ فـي أكثـر مـن حضارة وأكثر من أمة يعتمـد كلياً على التعاقبية , خاصة أن الإبداع يشـترك مع الإنسان في مراحل نموه وتطوره بتطور وعي وحضارة الإنسـان ونظرتـه ورؤيته للحيـاة والعالم ولذاتـه بدرجـة أخـص , مـن هنـا خضـع الإبداع للوحدة مع حياة الإنسـان وكذلك الغايـة التـي يتعلـق بهـا ويتطلبهـا من الإبداع , ونحن نعـرف من المدارس الفنية الحديثـة أن نقطـة الغايـات والفلسـفات التي يربطها الإنسان بالإبداع تختلف مع كل فترة باختلاف ثقافة وحضارة الإنسان .

حيـن تعيـد النظر فـي الغايـات والدوافع التـي جعلـت الإنسـان الأول فـي مرحلة وجـوده الأولـى يحمـل الإبـداع غايـات متحـدة تخصـه وتهمـه بدرجة أساسـية كشـعور وشاغلات إنسـانية سوى تعلقت بهمومه أو ببقائه أو خلاصه وفنائه .

ومـن هنـا جـاء الإبـداع كسـقف آخـر يحمـل عـن الإنسـان تجلياتـه الحياتية وخصوصيـات أمنياتـه النسـية والذهنية وربمـا تكـون همومـه اليوميـة المتواصلة مع حدوثها , وقد سـجل لنـا تاريخ الأدب منذ الأدب اليوناني و اللاتيني والفارسـي والعربـي الجاهلـي طوابع الاتصـال بين الأدب و أنسـاق الحيـاة المختلفـة بكافة مصائرها ومكنوناتها .

(الأدب والثورة)

نحـن هنـا فـي اليمـن وبالأخـص فـي القـرن الأخيـر الذي حـدث فيـه تحولات مختلفـة فـي المناطـق العربيـة كالتحرر من الاسـتعمار وبنـاء جمهوريات جديدة متحـررة من التخلـف والجهـل , منفتحة على العصر الجديـد ومعطياته المتنوعة وإمكانياتـه الملائمـة لإنسـان متحـرر , يـدرك معنـى الحيـاة العادلـة ومعايشـة الوطـن المتجمهـر بتضحيـات ونضالات الفـن , أي أن مـن قـام بثـورة سـبتمبر 1962م كانـوا هم أدبـاء وشـعراء وفنانين حملوا على جبينهم هموم وطن وتطلعات شـعب بأكملـه فحرروه مـن براثـن الظلم والقهـر والجهل , بل كان هنـاك تحرر في الشـأن السياسـي وإحياء الشعر الثوري الكلاسـيكي , وكيفيـة مسـاهمة هـؤلاء الشـعراء والأدبـاء بالفـن فـي صنع وطن وبنـاء شـعب , يحفـظ لنـا التاريخ شـعر زيـد الموشـكي والحضرانـي والزبيـري والمقالـح والبردوني وأمـان ومحمد عبده غانم وجـرادة وكثيـر من الشـعراء الذين كان لشـعرهم صرخـات مدويـة فـي زلزلة الطغيان وهز عروشـه بل اكتساح مواطنه وتوطيد حثيات الحرية والعدالة وترسـيخ قيم المدنية والعلم والمجتمع السوي .

الجميـع يدرك خصوصيـة الأدب الفاعلة في صنـع تحـولات سياسـية واجتماعية قـادرة علـى النهوض بالمجتمـع , بل كان الأدب هو بوابـة الانتصار ونافـذة كل أمل يصـل إليهـا طمـوح الشـعب , ورغـم كل الخلافـات التـي كانـت ماثلة بين شـمال اليمن وجنوبـه إلا أن الهـم الوطني واحد والنضال مشـترك والتضحيـات متداخلة بينهمـا , وخيـر مـن مثـل ذلك هـو الأدب الذي كان يمثل النسيج الوطني الهام بين الشـمال والجنوب , والمشـاعر الإنسانية والنضـالات هي الأخرى جسـدها شـاعر الشـمال والجنـوب بنبض وشـعور واحد سـواء فـي ثـورة سـبتمبر أو أكتوبـر مما هيأ الظروف لتتلاقـى همومهم وتفصح عن رغبتهـا بـروح واحـدة كأن لم يكـن بينها فاصل أو حاجز .

لـم تقـف نقـاط الاتصـال بيـن الشـمال والجنوب أدبياً عند هذا الحد في الاشتراك بالهـم الوطنـي والنضـال المتداخـل بـل تجـاوزه إلـى تأسـيس اتحـاد الأدباء والكتاب اليمنيين في بداية السـبعينيات ويضـم الجميـع مـن هنـا وهنـاك ليثبت بقوة حميمية الأدب ورقي مسـعاه وسقفه العالي في الرقي الفكري والوعي المعرفي المتجـاوز لأي خلافـات سياسـية , مثبتاً فـي الوقـت نفسـه أن الكلمـة لا يحدهـا برميـل أو جغرافيـا أو خطـوط تعريفيـة , الكلمة إنسانية فوق كل العوائق .

سـتبقى الكلمة هي الرابط الأهم في حياة البشرية ووسـيلة الاتصال غير المنقطعة بيـن شـعوب وأمـم وليـس بيـن أشـطار وأقطـار بـل بيـن عصـور وقـرون متعددة ولغات مختلفة ومتعددة, الكلمة رسـالتها عظمى وفاعليتها أكبر من حجمها أو عدد حروفها, وعمرها ما تعرف الموت أو الفناء , الكلمة هي الأبدية هي الوحدة والموحدة بيـن الهـم الإنسـاني, والمتمثلـة للقلـق الوجودي لبني البشر جمعاء , من خلالها نتصـل بماركيز وأرسـطو وديستوفسـكي وهاروكـي وإليـوت وجوتـه وسـارتر , بهـا تلتقي أسـماع ومشاعر الإنسـان أياً كانت جنسـيته أو لغتـه أو موطنـه أو معتقـده , الأهـم من ذلـك تتصـل أرواح البشـر عن طريـق الإبداع الـذي لا يعـرف للزمان ولا للمكان سلطة عليه , ليبقى الإبداع معجزة البشر غير المنتهية .

(الوحدة والشعر اليمني)

من يتابع مسـار الشـعر اليمنـي منذ قيام سـبتمبر وحتى عام الوحـدة اليمنية 90م سـيجد أن للوحـدة مسـاحة كبيـرة فـي جغرافيتـه , ونبضـاً حيـاً في أحاسيسـه بـل شـكلت طموحـاً وتنبـؤاً فـي تجربـة الشـاعر اليمني خلال تلـك الفترة , حيث سعى لتجسـيد صورتها ورسم مستقبلها وتبيـان جمالهـا الفنـي والاجتماعـي في تجربته , وشـعوره بأهميتهـا وضروريتها , فكانـت لا تفارق نصـه ولا تبارح دلالاته , خصها بالحنين ودثرها بالشوق والتلهف لمعانقتهـا, بـل تغنـى بهـا كمحبوبتـه وجعلها علماً في أفق خياله و طموحه .

الوحـدة كانت بالنسـبة للشـاعر اليمني هاجس إنسـاني, وشـاغل فني يـدور في فلكهـا ويحـوم حـول حماها, سـعى إلى تحقيقهـا في نصه, وحلم كثيراً بالانتصار لمعناهـا , متمسـكاً بجوهرهـا, ومـدركاً لغايتها وعظمتها , نابذاً ومعادياً خصومها وأعدائهـا , ولـم يكـن الشـعر الـذي وهب نفسـه لهذا الأمر بقليل, وإنما شعراء كثر جعلوها مبتغى فنهم, وجوهر حقيقتهم , وكانوا على يقيـن مطلق بحدوثها , بل إن بعضهم عاش سـنوات بحلمها المتحقق, وملامسـتها الكامنـة فـي صميـم روحـه وكلمتـه ,و يجـدر بنا فـي هـذا المقام أن نستذكر الشاعر الذي تغنى وبشر وحقق الوحـدة فـي فنـه, وهـو الـذي عـاش بها سنوات عمره لكن كلماته ستخلده دهراً لا يحصيه هو ولا غيره , إنه الشـاعر عبدالله عبدالوهـاب نعمـان الفضـول , الصـادح بقولهـا الفصـل ,ورغبتهـا الحتميـة فـي الوجود , كمـا لو كان الفن هـو الزمان وهو المكان , يَدرك أكثر مما يُدرك .

ومن وراء هذا التسـريب لمعطـى الإبداع, يمكـن لنا القـول إنه الوحيـد الذي يجمع الشـتات ويذكـر بالوطن كلما تناسـيناه , و يغيـب الوطن عنـه للحظـة , ومثلما هو الإبداع وطن, يبقى مكان الإبداع هو الوطن , لـذا ينبغـي أن يـؤدي دوره الحقيقـي, ويمـارس فاعليتـه الهامـة فـي بـث روح المـودة والإخاء بين أبنـاء الوطن الواحد , وينافي قيـم الكراهية والعنـف, بل وتعود تأثيراتـه الحميميـة فـي المجتمـع , وأن ينطلق مـن داخله , وأن تبقـى الكلمة هي الأفق الذي يظلـل الجميع , نبني أحلامنا تحتها ونطلق العنان لطموحاتنا الوطنية والإنسـانية , ونبقـى حالميـن بمواطنـة متسـاوية ومدنيـة وقيـم مدنية ومشـاعر إنسانية عالية .

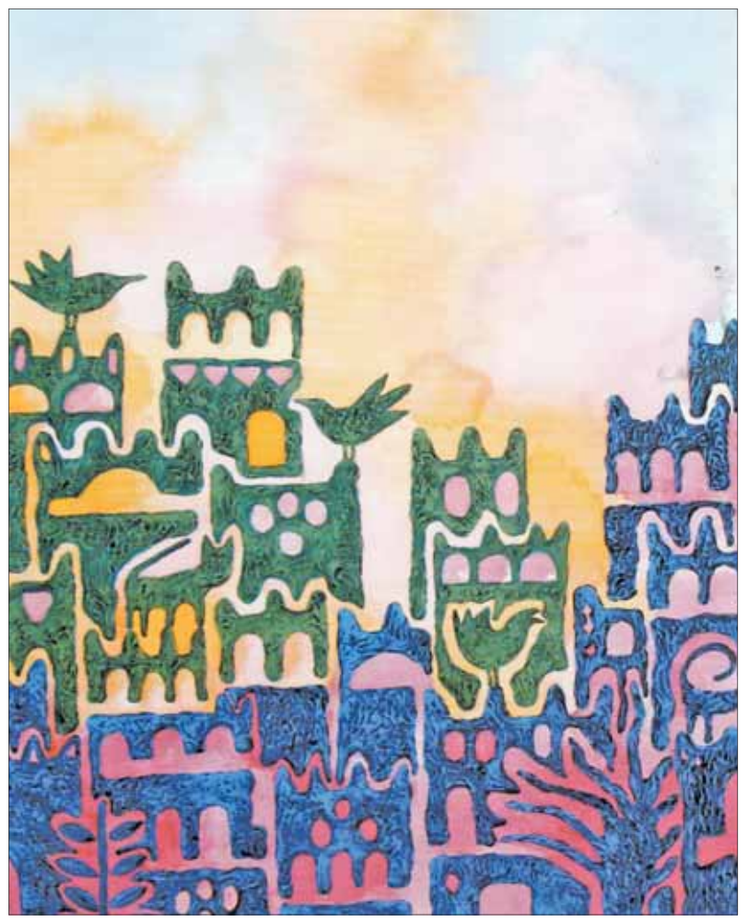

على شارعِ من جليدٍ البُكاء

.محمد المهدّي

نُزهتـي امرأةٌ في المسـاء المؤدِّي الى جسـد الماء
والماء يُظمِئ أرواحَهُ,
ويمرُ على شارعٍ من جليد البكاء
ليهمي على قريَّة العاطفةْ..
نزهتي امـرأةٌ في الصّباحِ الـذي لا يؤدِّي الى الماءِ
والماءُ لا يستطيعُ البكاء على نفسه
في الثلاثين من عمر ذاكرة العاصفةْ..
إنّها النزهة الأبديةُ في الملكوت اليتيم
ولا شيء منتسبٌ لأبيه
وإن كان يدعى المساء ابن غربته
والصباحُ ابن صحبته
ذلك الصبح, كالليل, كالوقت, كالعمر,
كالموت لا إسم لَـــهْ..
تلك أشباهُ من صوّتوا للضلالِ بعيداً عن الكهف
مـن علِقـوا فـي حناجرهـم عندمـا اختنقـوا بالهواء المؤكسد
من أسلموا للسحابةِ - وهي معطلةٌ - قلبهمْ,
كلُ تلك معطلةٌ.. إنّما
ذلك الافق من عطّله ؟!
نزهةٌ للفراغ المليء بأسمائه المستعارة
من أين لي بالتواجد في عدم مستعارٍ
وبامرأة أتقي شرّها بالسليقةً ؟؟
ضاعت مخيلتي في الذهول الذي باع
- ديناً- توجُسَهُ,
لم أجد واضحاً يتهجّى تأمُلَهُ غير قافية اللّام
مضمومةً باللّيالي
ومنصوبةً بالعدمْ..
إنه عدمٌ لغويّ الصُداعِ
ينامُ ويصحـو على كَونه المُتعثِّرِ بالأغنيات السحيقةِ /
بالشّجنِ المتّهمْ..
تهمةُ الخوفِ, يا تهمة الخوف
من أين لي بالسّكينةِ ؟
من أين لي بالسُكون ؟
أنا طيّبُ القلب والروح والنفس
ذنبـي: هـواي, علـى أنّنـي شـجنٌ عاطفـيُ الصدى,
وخطاياي: ليست سلالة أمتعتيْ الدُنيويّةِ,
ليس سوى وطنٍ لم يكن محترماً..

مـــغـــامـــرة فـــارس

في عام 2002 نال الشـاب الفرنسي لويس مونييه شهادته العليا من إحدى المدارس التجارية الفرنسـية، لـم يشـأ عندهـا أن يسـلك مشـرباً تقليدياً في حيـاة وظيفية هادئة، بل قرر أن يخطّ لنفسه مساراً مهنياً اسـتثنائياً. هكذا لم يتردد في قبول العمل بإطـار إحـدى المنظمات غيـر الحكومية، ووجد نفسـه مكلّفاً بمهمّة في أفغانستان، وبالتحديد فـي منطقة «ميمنـة» القريبة مـن تركمانسـتان. كان ذلك يعنـي الإقامة لفترات طويلـة في تلك المنطقة، والتعرّف إليها عن قرب.

وعندمـا وصـل إلـى أفغانسـتان، بهـره جمالها، ووقع أسـير حبّها، حيث اكتشف جمـال سـهوبها وجمـال البـدواة الـذي يقتـرب مـن العبقرية كمـا يقـول، وقرر أن يقيم ويعمـل فيها ويعيش مـع أهلها. كان ذلـك بدايـة فـي إطـار إحـدى المنظمات الإنسـانية غيـر الحكومية، ثمّ فـي العمل بمجـال الإنتـاج والإخـراج السـينمائي والتلفزيوني.

مغامرات

لقـد عـاش فـي تلـك البـلاد العديـد مـن المغامـرات، لكـن المغامـرة الكبـرى التي قام بهـا لويـس مونييه كانت فـي اجتيازه على صهوة حصان، وعلى غرار شـخوص روايـة «الفرسـان»، الذين رسـمهم الكاتب جوزيف كيسـيل في العمـل الروائي الذي حمـل عنوان «الفرسـان» عن أفغانسـتان في سنوات السـتينات المنصرمة، أي قبل زمن الحروب الأخيرة التي شـهدتها البلاد بعـد دخول القوات السـوفييتية إليها عام 1979 خـرج لويـس مونييـه بهـذا الكتاب الذي أعطاه عنوان «الفرسان الأفغانيون». ويصـف المؤلـف فيه مغامـرة ذهابـه إلى أفغانسـتان من بدايتها، كمـا يصف البلاد وأهلها وعاداتهم وسـلوكهم حيال الغرباء. ويحدد القول لأنها ذات أهمية استراتيجية منـذ القديم حتى اليوم مـن خلال موقعها «على مفترق طرق طريق الحرير ثم طريق المخـدرات والغـاز والبتـرول حيـث إنهـا كانت منذ القديم مركز العالم».

كانـت الخطـوة الأولى في مغامـرة الرحلة الطويلة هـي البحث عن حصان مناسـب للقيام بالرحلة الطويلة وتدريبه للمشاركة في اللعبة، الحلم عندما تحين الفرصة.

يكتب المؤلـف بخصوص ذلك: «إن عملية تدريـب الحصـان للمشـاركة فـي لعبة البوزكاشـي ترمـي فقـط إلى جعلـه يقبل فارسـه وتطوير كفاءته للمعركة. في أوروبا لا يؤخـذ لغريـزة الحيوان أي حسـاب من أجل تنفيـذ الحركات والأفعـال المطلوبة. لكن الأوزبـك والطاجيك يحاولون الحفاظ على الجانب الوحشي، الغريزي».

ألعاب رعوية

وانطلق لويس مونييه من منطقة «ميمنة» في شمال البلاد، حيث أقام لفترة من الزمن حتـى مدينـة هيـرات، الواقعة فـي غربها قريباً من الحدود مع إيران وتركمانسـتان. ويحدد القول إن مشـروعه في البداية كان القيـام بالرحلة مـن «ميمنة إلـى تبريز»، لكـن الإجـراءات الإدارية منعتـه من ذلك. كما يشـير إلى أنه اسـتفاد كثيراً من كتاب رحّالة ألماني اسمه ترنكلر، الذي روى فيه تحت عنوان «عبر هيرات في أفغانستان» رحلته إلى الهند على صهوة جواد انطلاقاً من «هيرات».

وعن مسـاهمته الفعلية فـي اللعبة لاحقاً يـروي لويس مونييه أنه أحـسّ بفرح كبير عبر مشـاركته في تلك الهيّـات الجماعية التي تلبّي حاجـة بدائية للحريّة المنفلتة من جميع القيود. وإشـارته ؛ «لقد نجحت فـي بعض الهجمات ولكـن كانوا يخطفون منّـي كل مـرّة الطريدة قبـل توصيلها إلى حيث ينبغي».

لم يكن الأمر بالنسبة إلى مؤلف هذا الكتاب يتعلّـق بمجـرّد لعبـة، ولكـن أوّلاً وأساسـاً إرادتـه خـوض تجربـة التعرّف إلـى نمط عيـش آخر غير النموذج الغربي و«نظراته الفارغة». هـذا ما يعبّر عنه بوضوح عندما يكتب: «أدرك تماماً المفارقة. فالأفغانيون يتطلّعون إلى الترف الغربي..

بينمـا أريـد الهـرب مـن غـرب مريـض بثرواتـه»، ويضيـف فـي السـياق نفسـه: «أفهـم تطلّع الأفغانيين للتـرف وللكهرباء ولـ150 محطة تلفزيونية، ولكنني أخشـى أن يفقـدوا جزءًا مـن روحهم . تلـك الروح التـي وجدتها في الحمـاس البدائي لتلك اللعبة، بوزكاشي».

وعبر تلك اللعبة الشـهيرة لدى الأفغانيين أدرك مونييـه حقيقـة الذهنيـة الأفغانية، ذلـك أن تلـك الرياضة «تربط بيـن محبّة الجياد وتـذوّق مقاربة المخاطـر والمكانة الرفيعـة التي يولونها للشـرف». ويشـرح أن ذلـك الأمـر لـم يكن ميسـوراً بسـهولة، فهو يتطلّب الكثير مـن «التصميم والعناد والشـغف والشـجاعة، وقبـل كل شـيء المثابرة».

أرض الشجعان

إن الكثير من صفحات هذا الكتاب مكرّسـة بشـكل خـاصّ للحديث عـن أفغانسـتان القديمـة، العريقـة، عن «هذه البـلاد التي يفـوق عمرهـا كل الأعمـار، وحيـث لا يتم الحديـث من موقـع الانتماء إلـى قوميات، بـل إلـى شـعوب. وهنـا لا يتـم الحسـاب بالكيلومتـرات، ولكـن بعـدد الأيـام التـي يمضيهـا عابـرو الطريـق للوصـول إلـى الوجهـة التـي يقصدونها. وعندمـا يفارق أحدهم الآخر يتبادلان القول: «زندا باشي؛ مـا يعني (حافـظ على حياتـك)، ذلك أن الحياة محفوفة بالمخاطر».

عبـر قراءة هذا الكتاب يتعـرّف القارئ إلى أفغانسـتان والأفغانييـن «مـن الداخـل»، بعيداً عن الصورة القاتمة التي رسمتها لها ولهم وسائل الإعلام الغربية، ويقدّم لويس مونيين الأفغانيين باعتبارهم مجموعة من الشـعوب التي «عرفت الحروب دائماً، ولم تقبل الخضوع لأحد».

الكتـاب: الفرسـان الأفغانيـون - تأليـف: لويـس مونييـه - الناشـر: كيـرو- باريس- 2014 - الصفحـات:328 صفحـة - القطع: المتوسط.